ذكريات حزيران

قصة بقلم رشاد أبو شاور

اذكر ما زلت ذلك اليوم عند العصر ، فردت امي سجادة الصلاة ، تهدل جسدها بايمان حزين ، أخذت تتمتم .. أشحت عينها بوجهي ، أخرجت سيجارة من العلبة ، لاحظت أن اصابعي ترتعش . تساءلت في سري : أأنا خائف ؟ .. حاولت استجماع وعيي كله كي أحدد جوابا واضحا بحيادية تامة .. توصلت الى القناعة التي تقارب حد الايمان ، بانني لست خائفا . أنا ـ لا أعرف تماما ما هي الحالة التي تلبستني آنذاك ـ أجزم انه شيء مغاير للخوف .

دفعت بدني الى الخلف ، ركزت حافة الكرسي على الجدار . تدلت ساقاي في الفراغ ، بدأت أحركهما بطريقة طفولية ، خيل الي آنذاك انني أشبه ما أكون بطائر قص جناحاه .. وأهمل في صحراء خالية من كل أمل .. رأيتهم يتجهون الى الشرق . السهول مد النظر تضج بالفارين . يبدون مثل دجاج داهمه خطر مفاجيء ، كانوا سيلا عريضا مضطربا .

تلوح الطائرات في السماء ، مثل غربان هائلة جهنمية .. انقضت باتجاه الجسر . القت من جوفها اشياء رمادية . هطل رصاصها بكثافة. ثم ارتفعت وغربت باتجاه القدس . ممزقة بضجيجها سماء أريحا .

شمس حزيران الحارة تغرب . تكبر ظلال البيوت ، واشجار الحور الباسقة .. تسكت الحياة ويلوح كأن كل شيء انتهى .. كأن الحياة هنا لم تكن الا زيفا . تهاوى دون عناء أو مقاومة تذكر .

مرت قافلة جديدة ، على الرؤوس بقبح محشوة بالملابس الضرورية .. بعضهم يحمل صفائح ماء . الصغار يتعثرون في سيرهم ، لكن الجميع يتطلعون الى الشرق . يقيسون المسافة التي تفصلهم عن النهر بوجل الغريق .. شدت امي قامتها . فتحت الباب الخارجي . مدت رأسها من الفراغ . وظل جسدها في الداخل ، ويدها ممسكة بالباب موارباً .

توجهت بسؤالها الى احد الرجال ـ امي تحتقر النسوة ، وتعتبر نفسها وريثة رجال اشداء عرفوا بالشجاعة والكرم . لذا فهي تخاطب الرجال دونما حرج أو تكلف . وبطريقة الند للند .

ـ من أين مشوارکم ؟

أجاب الرجل بسرعة متلعثما وخجلا :

ـ من الخليل ..

وظل وجهه يتجه الى الشرق . وتشاغل عن أمي بجر ولده من يده طالبا اليه الاسراع في المسير .

***

ثمة حقيقة واحدة رسخت في عقلي : لن أرحل .. لكني محرج من التحدث مع امي في الموضوع .. شقيقي (يوسف) يعمل في العقبة، و (محمد) في بيروت ينتظر فحص نهاية العام ، و (قاسم) رحل في بداية السنة الى المانيا ، رفض الزواج من ابنة خالته وانطلق باحثا عن الثروة ، واعجبته احاديث العائدين عن النساء ... كيف ابدأ الحديث معها ؟ أعرف انك تتمزقين الان يا أم ، الابناء يطوي اخبارهم البعد ، والقلب يتقد في جحيم التمزق . هناك منفذ واحد ، باستطاعتك الرحيل الى (عمان) والالتقاء بابنتك المتزوجة (مريم) حيث تقيمين بانتظار اياب الغياب .. اما أنا فباق هنا ، لا تستطيع قوة مهما عتت ان تحركني . أيضا لن افرض عليك مصيرا اخترته لنفسي بمحض ارادتي .

ظلت نظراتي الجامدة تحدق في الليل الزاحف . الام تقعد على عتبة البيت ، يدها اليسرى تحت ذقنها ، ترتكز على فخذها . يدها اليمنى مفروشة على صفحة وجهها .. صامتة جامدة النظرات والملامح ، ليتني أعرف ما يجول بذهنها .

سعلت ، ثم دعكت عينيها باصابعها ، كأنما لتمحو عنهما خيالات شيطانية ، راقبت حركاتها .. أعرف ان بها رغبة للحديث :

ـ هل تتعشى ؟

ـ لا .

ـ أنت تدخن كثيرا ، رفقا بصدرك .

ـ ماذا أفعل ان أنا لم ادخن ؟

وساد صمت ثقيل .. لويت يدي ، تناولت المذياع عن حافته النافذة .. أجدهم يرافقه ضجيج آلات محمومة ، يصرخ بحب الوطن والله والحرب . قالت الام :

ـ لا يجدون غير الغناء .. لم تظهر طائرة عربية واحدة في الجو..

أغلقت المذياع . وضعته عند قدمي .. وانشدت الصراصير اغنيتها المعتادة . وشعرت انني منفي .

***

كل الذين تعرفهم ، راحوا ، لم يبق منهم أحد . صراخ في المذياع :

أخيرا اشتعلت الحرب ... ثم قصف ونيران تلتهم المعسكرات المكشوفة .. ثم حرب .. كل هذا حدث باسرع من لمح البرق .

ألا تنامي يا أمي ؟

ـ لست نعسة .

رافقت كلماتها تنهيدة طويلة ، فيها كلام كثير ، وعرفت قصدها ، وشعرت انني اختنقت ، وخيل لي ان السماء تطبق على الارض ، لتعتصر كل شيء بحقد وجنون . وسرى في الليل هدير واهن لدبابات بعيدة .. اغمضت عيني قليلا ، خيل الي انني أرى في جوفها وجوها رمادية مغبرة وعيونا ذاهلة .. وتأسيت لكل الرجال الذين هزموا . ودار رأسي ، فاتكأت على الجدار لفترة قصيرة .

ـ سأخرج قليلا .. لا تنزعجي .

ظلت ساكتة .. انسربت من الباب الخارجي الى الشارع ، أخذت أسير لاهثا كأنني ابحث عن ضائع .. وعشت حينئذ على أمل واحد : أن اسمع صوت أيما انسان .

***

عدت منهكا . امي ما زالت يقظة . بدا عليها انها انتهت توا من صلاة العشاء ، فهي ما زالت تهمس ببعض الادعية بصوت مسموع. فجأة قطعت ادعيتها ، وبلهفة ، سألتني كأنها حدست هدفي من الخروج :

ـ أيوجد أحد في المخيم ؟

ـ بعض الناس .. سمعت أصواتهم .. لا أعرف اذا كانوا ينتظرون أحدا سيأتي لنقلهم ام انهم سيمكثون هنا .

هبطت الى المطبخ . أشعلت « اللكس » . حملته وصعدت . اخذت أفك البراويز عن الجدار ، ظلت خارطة (فلسطين) وحدها في صدر الغرفة .

أتذكر صديقي أحمد . كيف كنا نكتب معا النشرات ، ونحرض على العمل من أجل الوطن .. لم يكن يحب الشعر ، مع ذلك ابتاع مرة ديوان « فلسطين في القلب » . من أجل العنوان فقط ..

ـ يا يوسف ، فلسطين في القلب .. سأترك الدراسة .. نمى الى علمي اخيرا انه استشهد ..

هبت الرياح ، أخذت مصاريع النوافذ تصطك ببعضها .. وغصت الغرفة باعقاب السجاير والغبار ، والاوراق المتناثرة .. كانت الخارطة ترتجف . بدت مثل انسان يشنق . اختلجت قليلا ثم هدأت مع سكون العاصفة .

عدت الى المطبخ . نبشت قليلا . اخرجت قطعة السلاح . أخذت انظفها . القمتها المخزن .. تسلمتها قبل بضعة شهور .. كنت قد انهيت تدريبي وعدت الى اربحا .. صديقي احمد هو الذي دعاني للعمل . كنا معا ندرس في الجامعة .. كنا معا .. لكنه رحل .. أربحا مطفأة ، والخيمات تغوص في العتم والحيرة ، كأن الخراب هو القاعدة في هذه البلاد وما عداه استثناء .

اسأل نفسي : أين نحن الآن ؟ ما هو دورنا ؟ بعضنا في السجن ، وبعضنا لاقى حتفه . قلائل هم الذين بقوا على قيد الحياة لا يعرف واحدهم عن الآخر شيئا .

***

أتسمع الى وقع اقدام كثيرة . ربما كانوا مجموعة جديدة من الفارين ، انه الطوفان .. لا تتطلعوا الى الخلف ، فلقد تحطمت السفينة فجأة وعم الخراب والهلاك .

تقترب الاقدام ، تخرج امي عن صمتها :

ـ ترى هل أتى اليهود ؟.

ـ لا اعتقد فليس بهذه السرعة يأتون .

وقفت عند العتبة استطلع جلية الامر . لم استطع تمييز الوجوه ، احدهم تقدم ، وقرع بيده الباب ، بينما توقف الآخرون .

ـ من ؟

وجاءني الصوت :

ـ عمك ابو محمد .. ادخلوا يا شباب .

***

تعانقت مع الصديق القديم .. اخذت امي تعد الشاي .. روى لي كيف اخرجوهم من السجن يوم المعركة ، ثم اختتم حديثه :

ـ طلبوا الينا أن نكون ادلاء . نتقدم الجيش الى اهداف محددة . لقد انتهت المعركة قبل ان تشرع في تنفيذ المهمة . كدنا نموت بلا مقابل.

سألني :

ـ اتدري ان القتال توقف ؟

ـ أدري .

ـ وان القدس سقطت ؟

ـ أدري .

ـ وان اليهود في طريقهم الى أريحا ؟

ـ أدري .

ـ اذن ماذا تنتظر يا رجل ؟

ـ لا أنتظر شيئا .

ـ كنت اعرف انك عنيد .. أقسم أنني توقعت لقاءك هنا .

ووفدت الى ذهني ذكريات حميمة ..

تدربنا في (سوريا) ، كان ابو محمد قائد مجموعتنا ، وكان اكبرنا سنا . واكثرنا خبرة وكفاءة ، رغم انه نصف أمي .. قصير القامة ، ضئيل الحجم ، وجهه غاضب ابدا لا يقبل الاعذار .. احدى ميزاته الهامة ، قدرته على تهريب السلاح من مكان لآخر . قبل حزيران بثلاثة اشهر القوا عليه القبض وهو عائد من أحدى العمليات .. زجوه في السجن ..

تنبهت اليه وهو يداعب سلاحي .. علق جادا :

ـ سلاحك متسخ ..

اخذنا ندخن ونحتسي الشاي ، واخذت أصابع الرجل تفكك الاقسام وتنظفها بمهارة . جمع الاقسام ، والقم المخزن في جوف السلاح ، ثم وقف :

ـ ايائس أنت ..

ـ لا .. لا أعتقد ذلك ..

ـ اتعرف ما هو دورنا الآن ؟

ـ ربما .. انني احاول ..

ضغطت اصبعه على الزناد ، فهدرت النار في ظلام الليل ..

ـ ما دمنا نمتلك هذا .. فسنستمر ..

ثم أردف :

ـ لسنا هاربين . سنتجمع في الشرق ثم نعود . لا بد ان نعود ونلتقي ..

قلت لامي : هل ترحلين ؟

احتقن وجهها بالغضب ، وخيل الي انها ستصفعني :

ـ الى اين .. الى أرضنا ..

قالتها بهزء .. واختفى الرجال ، غيبهم الدرب ، وما زالت امي تتطلع الي بغضب .. القيت السلاح على الفراش . تطلعت الى الغرب. كان الظلام كثيفا مريدا . وبدونا حقا ، انا وامي كأننا في جزيرة مهجورة .. سألت نفسي : ماذا انتظر الآن ؟ أن ينقشع الليل ، وارى الشمس تزهر مرة اخرى ، وصراخ الاطفال في الشوارع . الاطفال الذين فروا مع اهلهم .

عمان

رشاد محمود ابو شاور

شعر

من منشورات دار الاداب

		ف . ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٢٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● امام الباب المغلق	» »	٢٠٠
● لم يبق الا الاعتراف	لاحمد ع. حجازي	٢٥٠
● ديوان ابراهيم	لابراهيم طوقان	٣٥٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الناس في بلادي	لصلاح عبد الصبور	٢٠٠
● مأساة الحلاج	لصلاح عبد الصبور	٣٠٠
● فلسطين في القلب	لعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠